مفهوم النص عند الأصوليين

للنص عند الأصوليين تعريفات مختلفة، منها:

- اللفظ الكاشف لمعنى بنفسه.
- ما يُفهم المعنى منه على وجه لا احتمال فيه.
- وقيل: كل لفظ لا يحتمل إلا معنى واحدًا.

وهناك أقوال أخرى كثيرة، وبالرجوع إلى الآية فإن المؤلفة قلوبهم جزء من النص، وهي من المنطوق، لكن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه تعامل معها بالمفهوم لا المنطوق، ومع أن المفهوم نسبي والمنطوق مطلق، فإن عمر رضي الله عنه قدَّم النسبي على المطلق وقدَّم سلطة أخرى على سلطة النص هي سلطة الواقع، فلقد رأى عمر أن المؤلفة قلوبهم صنف لم يعد لهم وجود، وتعامل مع النص بقرينة الحكمة لا بقرينة العلة، ومعروف أن هناك فرقًا بين العلة والحكمة عند الأصوليين لإثبات الحكم أو نفيه، إن تقديم مفهوم النص على منطوق النص، غير جائز عند الأصوليين.

الخلاصة في هذا الموضوع أن الواقع أيضًا له سلطة لا تلغي سلطة النص، وإنما ترشده إلى كيفية تطبيقه، ولهذا ينبغي أن نقر أن عدم تطبيق النص في بعض الأحيان لا يعني رفض تطبيقه، بل يعني انتفاء سبب تطبيقه.

obeikan.com

إن البحث في الظرف التاريخي ومقتضى الحال ليس أمرًا جديدًا، فقد فعله عمر، وتبعه كثير من الصحابة والفقهاء.

§ سياسة الهروب إلى الأمام:

سُئل أحدهم لماذا لم يفرض الرسول صلى الله عليه وسلم الجزية على يهود المدينة؟ فأجاب قائلاً: لأن آية الجزية: (قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) [التوبة: ٢٩] لم تنزل إلا في السنة التاسعة للهجرة!

ونرد على سؤاله بسؤال، ولماذا لم تنزل آية الجزية قبل السنة التاسعة من الهجرة؟.

إن التعامل مع آيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بطريقة الهروب إلى الأمام، أو بطريقة إن هذه الآية قد نسخت تلك، دون النظر في الظروف والملابسات والمستجدات، يعني القضاء على محاولة الفهم والتفكر، ويعني تعطيل العقل وتجميده في ثلاجة الخمول والكسل، وستكون النتائج وخيمة على الأمة كلها، ويمكننا أن نقارن بين هذه الطريقة في التفكير وبين طريقة ابن كثير المفسر الذي يسبقنا بعدة قرون، لندرك الفرق الشاسع والبون الواسع، بين نموذجين للتعاطي مع النص المرجعي، أي الكتاب والسنة.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة النساء:
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) [النساء: ٧٧].

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليتشفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة، منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال، فلهذا لم يؤمروا بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار وأنصار، ومع هذا لمَّا أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفًا شديدًا وقالوا: "ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب" أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى فإن فيه سفك الدماء ويتم الأولاد وتأيم النساء.

فهذا هو ابن كثير يمارس طريقة التحليل العلمي ويبحث في الأسباب والحكم والعلل، وينظر إلى الموضوع من جهات شتى، وقد كان

بإمكان ابن كثير أن لا يتعب نفسه ولا يرهق ذهنه بمحاولة التقصي هذه، ويقول: إن القتال كان غير جائز في مكة لأن آيات القتال نزلت بالمدينة، إنها طريقة مريحة بدرجة كبيرة، لكن نتائجها سوف تكون كارثية، لأنها تعني ببساطة انقطاع الصلة بين النص وواقعه، وتعني أن نصوص القرآن ليست نصوصًا واقعية، وهذا لا يقول به عاقل، فآيات القرآن وضَّحت علاقة الإنسان بربه وأسرته ومجتمعه، وغيره من المجتمعات، ونظَّمت هذه العلاقة سِلمًا وحربًا، شدًّا وجذبًا، بطريقة يمكن استخلاص العبرة والعظة والنظرية والقاعدة من خلالها وما الناسخ والمنسوخ في بعض صوره إلا مراعاة لمقتضى الحال، لكن ثمة شيء آخر لم يذكره ابن كثير وهو: ما سر التحول في موقف الصحابة، من موقف الغاضب الراغب في الدفاع عن نفسه وكرامته وحقه في الاختيار والاعتقاد، إلى موقف المسالم، الساعي إلى التهدئة؟.

إن هذا الأمر لا شك أنه يتعلق بالناحية النفسية للإنسان، ويتعلق ببيئته أيضًا، فالصحابة في مكة لم تكن أمامهم منافذ للحياة، وكل الطرق كانت مسدودة، فهم لم يكن مسموحًا لهم بممارسة شعائر دينهم بحرية، كما كانوا محاصرين اقتصاديًا، ومنبوذين اجتماعيًا وسياسيًا، كل المنافذ إذن كانت مغلقة، وطبيعتهم العربية كانت ترفض هذا الهوان، فقد نشأوا في بيئة تفتخر بالظلم، وتتباهى بالهيمنة والسطوة.

قال عنترة:

أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتِ فَإِنَّنِي سَمْحٌ مُخَالَقَتِي إِذَا لَم أُظْلَمِ
وَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعمِ العَلْقَمِ

وقال عمرو ابن كلثوم:

بُغَاةٌ ظَالِمينَ وَمَا ظُلِمْنَا وَلَكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا

لقد تغيَّر الواقع إذن عندما انتقلوا إلى المدينة، وانتفى سبب طلب الثأر، وفتحت منافذ جديدة، وبدأو يشعرون بقيمة الزوجة وعاطفة الأبوة، كانت هذه الأشياء غائبة في مكة، فكيف يشعر الأب بهذه المعاني الإنسانية، وهو مطارد مهدد بالقتل في أية لحظة؟.

إن قضية الواقع والنص، لا تعني رفض النص، فهناك فئة ليس لديها استعداد للحوار، وتمارس نوعًا من الإرهاب الفكري، على كل من يحاول أن يفهم أو يناقش، وتجدهم عند مجرد ذكر الواقع، يشهرون سيف فهمهم الاستبدادي لبعض الآيات، فتجد الرد جاهزًا: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا) [الأحزاب: ٣٦].

إن هذه الآية تتحدث عن الذين يرفضون حكم الله مطلقًا، لا عن الذين يستنبطون القواعد من النصوص، ويبحثون في فهم العلاقة بين النص وملابساته، بين الأسباب التي ساهمت في إنشاء النص،

والنتائج المترتبة على تطبيقه، ونستطيع أيضًا أن نرد على الآية بالآية، لأنها عملية سهلة، نستطيع أن نستشهد بقوله تعالى: (وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً) [النساء: ٨٣].

وهل كان استبداد الحكام وكهنة الحكام إلا من خلال التلاعب بالنصوص وبقوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) [النساء: ٥٩]. وهل كانت الشبهات المثارة ضد الإسلام، إلا بسبب فصل النص عن واقعه.

§ ثقافة البدائل والخيارات في فهم متعدد لنص واحد:

حديث (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة) والذي رواه الإمام البخاري؛ في هذه الواقعة لم يكن هناك إلا نص واحد، ومع ذلك انقسم الصحابة إلى فريقين في فهم النص، واختلاف الصحابة يرجع إلى سببين: أحدهما يتعلق بالطبيعة البشرية والثاني يتعلق بطبيعة النص، فالنص هنا يحتوي على عنصرين قد يتناقضان، وهما عنصر التوقيت أو الزمان (العصر) وعنصر المكان (بني قريظة)، فعند تحققهما معًا لا تحدث مشكلة، لكن عند تحقق أحدهما على حساب الآخر، لابد من الاختيار بين البدائل، إما البديل الزمني

(العصر)، وإما البديل المكاني (بني قريظة)، ولذلك لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على أي من الفريقين في ترجيح الاجتهاد الذي ذهب إليه.

§ ثقافة البدائل والخيارات عند غياب النص:

عند عدم وجود النص المرجعي، فإن المشكلة تزداد تعقيدًا لأن الحل هنا يمر بمرحلتين:

- البحث عن النص من مجموعة من النصوص.
- انتقاء النص الأمثل والأكثر مناسبة للحادثة، لأن كل حل لابد أن يؤدي إلى مشاكل أخرى، قد تكون ثانوية أو أكبر من المشكلة الأصلية كما أشرنا منذ قليل.

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتدَّ بعض العرب، وامتنع البعض عن أداء الزكاة للخليفة أبي بكر، إن كلمة مشكلة هنا أقل من أن تصف هذا الخطب الجلل، فهو أمر يتعلق بمصير الأمة وربما مصير الإسلام ذاته، لهذا كان على أبي بكر أن يتصرف وأن يختار بين البدائل، لا يستطيع أحد أن يستكشف العالم النفسي لأبي بكر رضي الله عنه لأنه أمر مخبوء، لكن الأسئلة التي قد تتبادر إلى الذهن هي: ما الذي كان يعتمل في نفس أبي بكر إذن؟ وكيف استدعى النصوص إلى ذاكرته؟ وكيف كان يتدبرها؟ وأخيرًا كيف اتخذ قراره؟ إن كلمة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، "فوالله ما

هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر حتى علمت أنه الحق". [صحيح البخاري]، إن كلمة شَرَحَ هذه تشي بأن ثمة صراعًا بين النصوص كان يعتمل في صدر الصديق، كما أن موقف عمر أيضًا في أول الأمر الرافض لقتالهم لأنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، يُبين ثقافة البدائل، والبحث عن النص المناسب من بين مجموعة من النصوص.

وإذا كان الصحابة رضي الله عنهم، قد اختلفوا في فهم النصوص، فإنهم قدموا نموذجًا راقيًا لكيفية الاختلاف، لكن ما يحدث الآن من بعض المنتسبين للعلم، يُعطي صورة منفرة لكثير من المتحدثين باسم الإسلام، فهم يتعاملون بطريقة نعم أو لا، وبطريقة هذا حكم الله، ولو أنهم أبدوا بعضًا من التواضع في استخدام عبارات مثل: (ربما، وقد يكون، ومن المحتمل، لكان لدينا جيل قد تربَّى على الاستعداد للاستماع والتفاهم مع الآخرين، وهذه ليست أزمة الإسلاميين وحدهم، بل أزمة العلمانيين كذلك، وهي أزمة الشخصية العربية بوجه عام.